أثر الفنون الجميلة فى ترقية الشعور

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

" ألقيت هذه المحاضرة من شرفة الإذاعة اللاسلكية بدعوة من وزارة الشئون الاجتماعية "

سيداتى ... سادتى

لا جدال فى أن الفنون الجميلة فى كل أمة هى عنوان حضارتها ، والدليل الناطق على رقيها وسمو شعور أبنائها. فعلى قدر الانتاج الفنى لكل أمة، تقاس درجة حضارتها وتقدمها.

وتشمل الفنون الجميلة الأدب والموسيقى والتمثيل بنوعيه ، السينمائى والمسرحى والنحت والتصوير وغير ذلك من الأشياء التى يرفرف عليها علم الفن وتتأثر بها المشاعر .

فمثلا الكتب وهى سجل الأدب لها فى نفس الانسان مثل ما للربى فى نفس الطفل، فهى تدس فى أفكاره وأحاسيسه عوامل خفية يخضع لها العقل وينساق إليها الشعور بحركة لا إرادية خارجة عن نطاق العقل والتفكير .

فمن منا لم يتأثر بكتاب قرأه ؟ ومن منا لم يترك هذا الكتاب فى نفسه أثرا ربما تغير معه مجرى حياته ؟ . . ان المفكرين أنفسهم يتأثرون فى بعض الأحيان بأفكار زملائهم حتى يظنهم الناس يسطون على ثمرات قرائح بعضهم ، ويشاركهم هذا الظن الكتاب أنفسهم ، كما حدث بين مؤلفى روايتى " كنوز الملك سليمان " " وهى أو عائشة " إذ رفع أحد المؤلفين دعوى على الآخر متهما إياه بالسطو على روايته و خراجها بصورة تمثيلية إلا فى القليل النادر، وظل سير هذه القضية موضع حديث الجمهور فى ذلك الوقت .

من هذا يتضح لنا أن القارئ يتأثر ولا شك بما يقرأ حتى انه فى تقليده اللاشعورى لايكاد يصدق أنه قد خرج عن طبيعته بوحى من قراءته .

وقد يبلغ بالإنسان تأثره بما يقرأ مبلغا عظيما قد يكون خطيرا فى بعض الأحيان كما حدث عند ما انتحر بعض القراء على أثر قراءتهم رواية " آلام فرتر ". وكذلك عند ما نشرت قصة " بول وفرجينى " فقد اعتقد البعض أنها واقعية فبادروا بزيارة جزر الاتلياس وحجوا إلى قبر " بول وفرجينى " الوهمى فى ظل الشجرتين المتعانقتين ، وعندى الكثير من الامثلة التى تدل على أن الانسان يتأثر دائما ولو تأثرا وقتيا بما يقرأ . فالقراءة إذن هى ينبوع يغذى العقل ويثير العاطفة ويوجه الفرد حسب تأثره بها .

لذلك وجب علينا أن ندقق كثيرا فى اختيار الكتب التى ندخلها بيوتنا فلا نقتنى منها إلا المفيد النافع لا المستهتر العابث .

ولا يختلف أثر المجلات كثيرا عن الكتب ، بل غالبا ما يتزايد خطرها حتى تهدد الأسر بالخراب وتتسبب فى شقايا . وأظن لن أنسى ما كانت تسببه إحدى قصص المجلات الشائعة ذات مرة من التفرقة بين زوجين محبين . كانا على وشك أن يذهبا ضحية تلك الأفكار المسمومة التى رواها كاتب القصة فى قصته كى يضفى عليها جوا من حياته المنطرف الثائر .

كانت القصة تدور حول زوجين شابين ألف الاخلاص بين قلبيهما . . الزوج يتغيب أحيانا عن مواعيد أوبته إلى المنزل ، فتعتقد الزوجة المحبة أنه لابد من عذر قاهر يضطر زوجها إلى ذلك ، فتغفر له . . ولكن الكاتب الذى يعلم جيدا أن موضوعه هذا هو مشكلة كل بيت تقريبا ، أراد ان يدخل الشكوك إلى قلب كل زوجة . . فملأ قلب بطلة قصته بالأوهام الكاذبة وجعل عذارب الشك تدب بظنونها أخيرا فتعتقد أن زوجها يخونها فى أوقات غيابه عن المنزل : وتعمل الظروف من جانبها على تقوية خيوط الشك فى نفسها تريد أن تنتقم لكرامتها المهينة أعلى حد قول الكاتب ، فتخرج هى الأخرى لتهب قلبها إلى أول عابر سبيل ، وعندما يحاول الزوج أن يعود إليها ، تكون قد فرت بقلبها منه وتصبح حياتهما جحيما لا يطاق فيفترقان .

هذا ما صوره خيال الكاتب فى قصته وفى المجلة التى يعلم جيدا أنها تدخل الى كل منزل . . فأمكنه بتهاونه فى نتائج هذا الموضوع الخطير ، أن يرسل أسهما مسمومة إلى قلب كل زوجة تريد من زوجها تباطؤا ولو بسيطا فى مواعيد حضوره إلى منزله . . وكانت احداهن وهى التى عنيتها بسرد قصة ذلك الكاتب إحدى قارئات تلك القصة المشئومة ، فكادت أن تكون إحدى ضحاياها أيضا . . طبقت خيال القصة على الواقع . . معتمدة على أن كاتب القصة رجل يفهم جيدا شعور الرجال . . ولولا لطف الله الذى هدى الزوج أخيرا إلى الحقيقة التى كادت أن تهدم عشهما الذهبى ، لانتهى بهما الأمر كما صور الكاتب تماما . ولا حاجة بى إلى سرد كل ماحدث بين الزوجين فى فترة الشقاق الطويلة . وما فعلته الزوجة على الأخص ، فهذا شىء يمكننا جميعا أن نتصوره بالاستنتاج .

هذا ما حدث من جراء قصة كان فى إمكان كاتبها ان يحوبها نحوا إصلاحيا بعيدا عن التطرف والمغالاة ، ولا شك أن كثيرا منكم قد قرأ تلك القصة ، ويقرأ أمثالها يوميا على صفحات تلك الوريقات الهزيلة التى شاعت هذه الأيام ، حتى أوشكت أن تطغى على مشاعل الثقافة الصحيحة والأدب السليم .

كادت أن تزوى ينابيع الفن بعد أن حبذها الجمهور ، وتحايلت صحائف السفه والنكات الرخيصة وقد شجعها الناس واقبلوا عليها ، ناسين أنها أخطر بكثير من سائر المؤثرات الأخلاقية وان ابتياع صحيفه من تلك الصحائف لهو جرم لا يغتفره المجتمع ، وتشجيع لتلك الترهات على المضى فى عبثها بالأخلاق .

هذا عن الأدب . . أما عن الموسيقى فهى دون شك الفن الذى يعبر عن شعور كل أمة ومستوى تفكيرها ، فما من أمة شاع الخمول فى موسيقاها ، والعويل فى أغانيها ، إلا وكانت أمة خاملة متأخرة لا يرجى لها صلاح ، ولا يمكن أن يكون لها شأن بين الأمم الراقية المتحضرة التى تتصف موسيقاها دائماً بالقوة . . وأغانيها بالفتوة والحماس ، مما يحفز الهمم ، و ينشط النفوس . . ويرقى بالمشاعر .

فالموسيقى هى روح الشعب المعبر عن رغباته وأخلاقه . . والغناء هو الاتجاه الذى تتجه إليه هذه الرغبات المكبوتة والتعبير الناطق لها . .

ولذا كان من الواجب على كل أمة تود أن يكون لها شأن بين الأمم أن تسمو بأغانيها وموسيقاها لترقى بشعور أبنائها ، وتنتشلهم من غفوة الخمول والنوم الطويل . . ولست أود أن أتناول موسيقانا وأغانينا بالبحث الطويل ، فالعبرة ليست بما مضى بل بما سوف يكون .

أما فن النحت وفن التصوير ، فهما من الفنون الجميلة التى لها من الصفات مثل ما للموسيقى والغناء . . وكلاهما يعبر عن الشعور بابراز الفكرة بطريقته الخاصة . وكلما نحونا بهذين الفنين نحو التعبير المثالى ، البعيد عن مخاطبة الغرائز كلما ارتقينا بمستوى الشعب وابتعدنا به عن التفكير المبتذل الرخيص .

وبقى عندنا الآن من الفنون التى اخترناها فن المسرح وفن السينما . . . ففن المسرح هو فن التعبير عن الفكرة بالحوار ، وفن السينما هو فن التعبير عن الفكرة بالصور ، وكلا الفنين مشترك فى رسالته ووسيلته الفعالة .

وبما أننا قد وصلنا فى حديثنا عن المسرح والسينما فلنتناول بالبحث الكلام عن ماهية رسالتهما والغرض من وجودهما . . فكثير من الناس يعتقدون أن المسرح والسينما ماهما إلا أماكن لهو وعبث وتسلية وضياع وقت . ولكن الحقيقة ليست كذلك . . وإن كانت كذلك فما الفائدة إذن من تلك الجهود المتواصلة والأموال الطائلة التى تنفق عليهما بقصد النهوض برسالتهما والسمو بها ؟ .

إن رسالة المسرح والسينما هي في الحقيقة أعظم رسالة يمكن بها توجيه أفكار الشعب نحو المثل العليا ومعالجة مشكلاته بالطرق الحكيمة التي تعالجها عقول الكتاب وسائل التشويق وسلاسة المعاني ، وليس الغرض من عرض الروايات هو إظهار حفلات الرقص . وسماع الأغاني وغيرها ، بل إن هذه ما هي إلا وسائل ، الغاية منها تشويق الأذهان وإعدادها لتقبل معنى من المعاني السامية أو فكرة إصلاحية مفيدة .

وكلما لوحظ عند تأليف روايات المسرح والسينما . . قوة النكتة والغرض منها قبل أن تلاحظ وسائل التهريج . . وطرافة النكات كلما كانت أقرب إلى أداء رسالة اجتماعية ترتفع بذوق الجمهور المتلهف إلى تقليد كل مبتكر جديد .

وإننا لو اقتنعنا جميعا بفكرة الاصلاح فيما نكتب وفيما نقرأ ونسمع ونرى . . لارتقينا دون شك سادة ومسودين ، ولأصبحنا كما نتمنى دائما أن نكون .

وفقنا الله جميعا إلى ما فيه خير أمتنا العزيزة في ظل مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله ورعاه .

زينب محمد حسين